حِبر أبيَض
WHITE INK

حاولوا تحسين صورة عبدالحميد ونشأته

الذين مدحوه خذلهم بمذكراته

عبدالحميد الثاني هو ابن السـلطان عبدالمجيد، كانت مدة سـلطنة والده 22 سنة ونصف، وهو الذي أنشـأ النيشان المجيدي العلي الشأن وقدمه على نيشان الافتخار الذي أسسه السلطان محمود الثاني، ويتزامن تاريخ حكمه بفترة حكم الوالي محمد علي باشـا في مصر، وهذا مما أثر في نشـأة عبدالحميد ونظرته تجاه مصر خلال سلطنته.

ولعبد المجيد 26 من الأبناء، يحتـل عبدالحميد الترتيب الثاني بعد أخيه مراد، ولكل منهما أم مختلفة عن الأخرى. وقد نشـأ عبدالحميد منزويًا، ويشـعر بالراحة والمتعة في انطوائه، يعلل ذلك بقوله: "إن الانسـان ينشـأ تحت تأثير الظروف التي هو فيها". ومقولته تدل على مدى اعتلاله النفسـي للقيود التي تُفرض على مثل هذه النوعية من الأبناء، ليكون إعدادهم إعدادًا مختلفًا يخرج عن الطبيعة الإنسـانية إلى التكلف والتعالي في التعامل مع كل من حولهم.

كتـب عنه بعض الباحثين بأنه شـخصية خجولـة، وهذا ليس بمسـتغرب إن كان منزويًا لأسـباب كثيرة، منها كثرة إخوته من وجهة نظره، لأنهم كانوا يعيشـون بحرية وانطلاق واهتمام، بينما عامله والده معاملة قاسـية سيئة، والسـؤال الذي يرد هنا إذا كان السلطان عبدالمجيد يُعد ابنه عبدالحميد للسـلطنة فما السـبب في تركيزه عليه بينما كان المرشح الأول لولاية العهد هو أخاه مراد الخامس، لم يلاقِ ما لاقاه عبدالحميد!! ويذكر السـلطان في مذكراته بأن العطف الوحيد الذي تلقاه كان من أخيه مراد، لكنه يصف أخاه بأنه مسـكين.

شـعر بحرمان طفولتـه لأن معاملته كانت جدية، وتلـك طبيعة التربيـة التركية والبيت العثماني وما اتسـم به من تعالي حتى على بعضهم البعض.

يؤكد بنفسه أنه لم يكن يهوى اللعب طفلاً...

وكانـت طبيعة التعليم التي يتلقاها أبناء السـلاطين لها أهميتها، لكنـه حُرم منها أيضًا، حتى أن أسـاتذته كانوا يزجرونه لعدم انضباطه واهتمامه أثناء التعليم، ويعلل هو ذلك بنفسه في مذكراتـه وأكدها بعضٌ من المؤرخين بأنه كان يعشـق العُزلة بعيدًا عن كل مـا يحيط به لأنه غير مقتنـع بكل الناس من حوله لشـعوره بمخالفته لأفكاره. ولكن هنالك من ينفي عنه تلك النشـأة وأنـه غير مقبول أن يكون فاقدًا لفرصة التعليم ففاقد الشـيء لا يعطيه، وأماني الغازي تذكر بأنه قد اهتم بالتعليم وإصلاحاته تشـهد له بذلك عندما اعتلى السلطنة، ولو لم يكن متعلمًا فلن يبادر بالإصلاحات العلمية، بينما هناك من كانوا أسـوأ منه من السـلاطين والحكام وعملوا على إدخال إصلاحات وتغيير عندما نالوا فرصة الحكم. ومن جهة أخرى كانت له فرصة مرافقة عمه السـلطان عبدالعزيز في رحلته إلى فرنسـا سنة (1867م)، لذلك تأثر بالتقدم الفرنسي عن دولتهم، لذلك عمل على الاهتمام بالتعليم.

ذكر عبدالحميد فـي مذكراته بأن ارتفاع عدد المدارس الخاصة جلبت الاسـتثمار الخارجي، وهو ما كان يسعى إليه في إسطنبول، وكتب أن نموذج الأزهر أمامه يجعله حريصـًا على أن يعمل مركزًا دينيًّا ليجلب طالبي العلم لعاصمة دولته، وأن معاهد إسـطنبول لا بد أن تعمل على تخريج علماء بإعداد مناهج على مسـتوى عالٍ ليتخرج منها مهندسون ومعماريون وفنيون، وهذا ما ذُكر فـي انبهـاره بأوروبـا وتقليدها، كمـا انبهر بالحيـاة الأوروبية بكل مـا فيها من معيشـة غريبة وأخلاقيات مختلفة وشـكليات، ثم يتخبط في التوثيق لسياسته بأنه يريد أن يسحب خريجي الأزهر إلى دولته، متناسيًا أن العرب المسـلمين يختلفون عن توجهات العثمانيين العقدية والسياسية، لا سـيما أن السـلطان له فكره الخاص منذ الصغر ترعرع معه إلى أن شـب وأصبح سلطان دولةٍ متعالية رغم تأخرها.

> أعجب بنابليون رغم نظرته الدونية للعثمانية وسلطانها.

ممـا يثيـر الانتبـاه إعجـاب عبدالحميد بشـخصية نابليون، رغم أن نابليـون كان يمارس ضغوطـًا على عمـه السـلطان عبدالعزيز، وتلك الزيارة انعكسـت على طبيعة حكـم عبدالحميد فيما بعد.

كما كان عبدالحميد عديم الثقة بمن حوله منذ الصغر، وهو الأمر الذي ارتسم على شخصيته عندما تولى مقاليد الحكم والسـيطرة، إذ لم يكن على وفـاق أو اتفاق مع أحد، ولـم يكن يثق حتى بنفسـه، وانعكس ذلك على تـردده وتخبطه في اتخاذ القرارات حينما تولى زمام الأمور.

واعتـرف عبدالحميد أنه فاقـد للحب والعطف، ويحاول أن يحاكـي عُقدة النقص التي كان يعاني منها، لذلك فقد معانٍ مهمة في حياته أثرت عليه بعد الكِبر، وارتسـم ذلك وبدا في قسـوته واللامبالاة التي كانت واضحة في شـخصيته، خاصةً مع تقدمه في العمر.

وتذكـر الباحثة أماني الغازي أن والدة عبدالحميد أحاطته بحبها ورعايتها، ونما أسـرع من أترابه على حـد وصفها، ولم تتوقف عن تغذيته روحيًّا وأخلاقيًّا، فبلـغ ذكيًّا فطنًا، إلى أن ذكرت أنه فقد والدته ولكن والده أعاد له توازنه النفسـي بعـد فقدها برعايته له، وأنه كلف إحدى زوجاته التي لـم تنجب برعايته. بينما من يقرأ مذكرات عبدالحميد نفسـه سيكتشـف عكس ذلك تمامًا، حينما تحـدث عن عزلته وانزوائه وقسـوة والـده معه. لذلك من كتبـوا في مديـح عبدالحميد وحاولوا تحسـين صورته، خذلتهم مذكراته الشخصية التي كتبها بقلمه.

> عُقد النقص والاعتلال ظهرت في سياسته حينما أصبح سلطانًا.

ومـن الأحـوال التي أثَّـرت علـى تكوينه الشـخصي ونفسـيته معًـا تسـلط الـوزراء واستبدادهم واشتداد سياستهم في التعامل معه منذ زمن سلطنة عمه عبدالعزيز، وقد اشتكى حاله عندما كتب عن مدحت باشـا بعد إعلان الدسـتور سـنة (1876م) إذ يقـول عبدالحميد: "ولقد وجدت مدحت باشـا ينصب نفسه آمراً ووصيًا علي، وكان في معاملته بعيدًا عن المشروطية - الديمقراطية – وأقرب إلى الاسـتبداد". وهـذا مما يبين ضعف شـخصيته الشـديد وعدم قدرته علـى المواجهة الطبيعيـة مع من حولـه، إذ انعكـس ذلك على معاملته اللاحقـة بعد أن تولى زمـام الأمر، وبدأ يتعامل مع الجميع بدكتاتورية وعدم ثقة وإرهاب.

ومما عُرف عنـه أيضًا تعلقـه بالصوفية عندما اسـتهدف طرقها لكسـب ولائهـا للدولة العثمانيـة والدعـوة لفكرة الجامعة الإسـلامية، وجعل عبدالحميد من عاصمة دولته إسـطنبول مقرًّطـا ورابطة تربط بين الدولـة والتكايا ومراكز تجمـع الطـرق الصوفية فـي كل أنحـاء العالم الإسـلامي، واتخذ منهم دعاة للدعايـة للجامعة الإسلامية، وتكونت بذلك لجنة مركزية، مكونة من العلماء وشـيوخ الطـرق الصوفيـة حيث عملوا مستشـارين للسـلطان فـي شـؤون الجامعة الإسـلامية التي كان يطمـح أن تكتسـح العالم بفكرها وشـعارها "يا مسـلمي العالـم اتحدوا" الشـعار الـذي كان الهـدف منـه إنقـاذ الدولة العثمانية من الانهيار والسقوط.

كان عبدالحميد سـيئًا في تدبير الاقتصاد رغم شـحه وبخله، وقد أكد ذلك في مذكراته، بأنه جمع أموالاً طائلة اسـتودعها خارج بلاده في البنوك الألمانية العثمانية للاسـتثمار باعتبارها مكانًا أمينًا جداً لصالحه الشخصي، لأن إسـطنبول لا تملك مصرفًا يمكن الاعتماد عليه، ذلك على عكس من سـبقوه، وكل مـا جُمع من ضرائب أرهقت النـاس كان يحول عبدالحميد مـا يخصه إلى تلك الأرصـدة الخارجية. كما كان عبدالحميد مولعًا بالتجارة، التي شُـغِف بها على أيام والده عبدالمجيد الأول، وعلى الرغم من ذلك لم يكن بارعًا فيها.

المراجع:

1) أماني الغازي: الدولة العثمانية من خلال كتابات المستشـرقين في دائرة المعارف الإسلامية (جدة: الأعمال الثقافية، 2012م).

2) خليل إينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشـوء إلى السقوط، ترجمة: محمد الأرناؤوط (طرابلس: المدار الإسلامي، 2002م).

3) عبـد الحميد الثانـي: خواطري السياسـية 1891-1908م، ط2 (بيروت: مؤسسـة الرسالة، 1979م).

4) محمد فريد المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي (بيروت: دار النفائس ، 1983م).